

في شارع المتنبي رفع الشيوعيون لافتة يعزون فيها صاحب الزمان باستشهاد الحسين ودبّابات اليانكي تحوم في بغداد الديمقراطيه كانت أكثر الكلمات بعثاً على النفور والكراهيه في نفوس المرجعيات الشيعية واليوم صاروا يتقدّمون بها

نحوًا من عشرة أيام متواصلة، يمارس معظم أبناء الذهاب الجعفري من الجمهور الشعبي والمدنيين طقوس المناحة الجماعية؛ بكل ما يتخللها من مشاعر حزن وضرب للأجساد والبكاء. منذ اليوم الأول من محرم وهو اليوم الأول من الأيام العشرة المسمّاة أيام عاشوراء، اكتشف العراقيون أن موسم المناحة الجماعية (السنوية) لن يعود، بعد الآن مجرد موسم ديني تختالله طقوس خاصة تبدأ بزيارة المرافق المقدسة ثم بالولائم الدينية الجماعية ومجالس العزاء؛ وإنماً أضحي، بفضل عوامل جديدة ومجاورة، موسمًا سياسياً للإعلان وبكل ما يلزم من القوة والزهو، عن انتصار ثقافة خاصة بعينها داخل المجتمع العراقي، على سائر الثقافات المحلية الأخرى.

هذا الانتصار الرمزي الزائف، كان إلى النهاية واحدًا من أكثر نتائج الغزو المباشرة ببروزه. بكلام آخر، كان الغزو الأميركي للعراق في بعض أووجهه غير المنظورة، تعبيراً وتجسيداً لنمط من العنف، أي نمطاً من إنتاج الدم وزفنه والتخلص منه كما لو كان سماً؛ أدى من بين ما أدى إليه في خاتمة المطاف، لا إلى انتصار ثقافة الآخر الغربي على الثقافة الوطنية وحسب؛ بل وإلى انتصار ثقافة محلية بعينها على ثقافات محلية أخرى. وفي نطاق هذا الانتصار وما أسفر عنه من اصطدام سياسي جديد، سوف تقوم هذه الثقافة المحلية بيازاحة وتقييص وحتى تهميش الثقافات المحلية والتاريخية الأخرى، وربما إرغامها على الإنذاع لمطلبات وشروط الموسم الديني التقليدي نفسه بكل ما يستلزمها من مشاركة صريحة من جانب الآخرين في المناحة الجماعية.

الأساطير إلى السياسة

وقد تبيّن، بعد وقت قصير فقط من تفجر الظاهرة، أن النّظام السياسي الذي نصبه المحتلون، كان يقدم كل التسهيلات بما في ذلك اعتبار بعض أعياد الشيعة عطلاً رسمية؛ من أجل ضمان سهولة أكبر لجعل الإذعان والخضوع لسيطرة هذه الثقافة جماعياً وشاملاً. في هذا السياق، كان من شبه المؤكد أن الأميركيين رغبوا، بأنشكال مختلفة من التعبير، في وجود قوى بديلة قادرة بوسائل ثقافية – وبديلاً من العنف المنتج للدم – على تحقيق نمط من الإذعان الجماعي للعراقيين. ولم يكن ممكناً تخيل وجود قوى من هذا النوع حارِ إطر المؤسسة الدينية الشيعية التي سارعت إلى استغلال فراغ السلطة، وتشجيع كل تعبيرات ورموز الشيعة السياسية على تنظيم تظاهرات البناء هذه. وذلك ما يفسر لنا السبب الحقيقي لقيام الجنود الأميركيين بحراسة المسيرات الشيعية في كربلاء والنجف وبغداد، قبل أن تنتبه الأحزاب والمليشيات إلى الحرج الأخلاقي والديني الذي تتسبّب به هذه التدابير.

إن حراسة الأميركيين لمواكب الدّموع والمناحات الحمّاعية كانت تثير الحرج بالفعل؟ في هذا الإطار ارتفعت لافحة شارع المتنبي العلاقة وراحت تغطي الجزء الأكبر من شارع الكتب القديمة في بغداد.

ألهة وأبطال وقدائب

يطل الشارع الذي يحمل اسم الشاعر العربي الأكثر شهرة أبو الطيب المتنبي، على شارع رئيسى آخر في قلب بغداد هو شارع الرشيد. وهذا بدوره يحمل اسم الخليفة العاقدى الأكثر تأبهة وأسطورية وثراء فى التاريخ: هارون الرشيد. هنا هما رجالان أسطوريان يمتلكان كل الوصفات الضرورية من حيث رمزية مكانتهما فى الذاكرة الشعبية، ليصبحا متماثلين فى الأسطورة وفي الواقع. لقد أصبحا متاجوريين وسط جو مشحون بالفارقات الساخرة، فالشاعر الفارس يطل برمزيته العالية على مدخل السلطان الترى، وفي النظر الخلفى دبابات إبرامز الأمريكية وهى تقطع الشارعين الذين يحملان أسمى الشاعر والسلطان، فيما ترتفع لافتة سوداء علامة وحزينة على قها أنصار الحزب الشيوعى العراقى، تعزى كلماتها الإمام الغائب المهدى المنظر بوفاة جده البعيد الحسين بن علي. فكيف يمكن للمرء تفادي النظر فى هذا الفضاء المشحون بالأساطير وبالرمزيات العالية والمترجرة، وأن يتوجه المغرى الهمام فيها وهو أن المجتمع ياسره أضحي، فى تلك الساعات العصيبة من التاريخ، في قلب عالم الأساطير دفعة واحدة ومن غير توقع أو رغبة أو إرادة. يقول شترووس: إن التاريخ يصبح جزءاً من حاضر المفكرة فيه وليس من ماضيه. فماذا لو أنت فكرنا بالفعل، في الماضي، أي في التاريخ الاجتماعى والسياسي الذي يعيش بالأساطير في هذه اللحظة التاريخية الاستثنائية، وحيث يحتشد البشر من حول اللافتة وهم يتأملون بما يشبه الصدمة والذهول فى كلماتها، فيما غير بعيد عن شارع المتنبي تمر دبابات إبرامز العملاقة لتجوب شارع

هل يغدو التاريخ في هذه الحالة، جزءاً غير
منظور من الحاضر الراهن والحي ولا يعود جزءاً
من الماضي؟ تعني كلمة إبرام الإنكليزية: إبراهيم،
حيث يرسم الاسم العربي في صيغته العبرية
الواردة في التوراة على النحو الآتي: إبرام. في
هذه الصيغة من اسم الدبابة العلاقة تكتنف رمزيّة
من الطراز الرفيع والعلمي؛ فها هنا اسم الجد الأعلى
للعرب والميود وقد دوى في الشارع الذي يحمل
اسم هارون الرشيد، حيث أزيز جنائزير الدبابات
الأمريكية ينزل الروح في قلوب الأبراء على هذا
النحو يشكل الحاضر الراهن كملوكه هو نفسه
الماضي: هنا إبراهيم النبي جد العرب والميود
الأعلى والبعيد وإلى جواره المتباين وهارون
الرشيد والرصاصي والأمين والمهدى المنظر
والحسين وماركس. لقد احتشدوا جميعاً في مشهد
مهيب تمتزج فيه السياسة باليثولوجيا، والدم
بالعسل، ولি�صيروا هم الحاضر وليس الماضي
بمجرد أن نمعن النظر في المنظر الخلفي. إن ما
يجمع هذه الشخصيات، إذا شئنا الدقة والحنانة،

فترة ماركس في شارع المتنبي

ار (مايو) 2003 تزامن مروي

تلال بغداد (هذا هو شهر
نظام المجتمع العراقي بفرض

طل المجتمع العربي يرفض
لته تماماً كما تتمنّع العرو

م ديني من مواسم الدم بالنسبة للمسالمين الشرعاً

ساركين في طقوس البكاء رم

**لام الحسين (ع) ليشكل في
لاط، شيئاً شبيهاً ومما ثلاً با**

لابط، سينما سبيها وممانلا با
في هذه المناسبة التي تستمد

Digitized by srujanika@gmail.com

Page 1

الأحداث تمثل نوعاً من ممارسة جماعية للحرية؛ (لقد كان النظام السابق يخطئ كل العراقيين ويحرمهم من أبسط حقوقهم، إنهم لا يمارسون النهب إلا تعبيراً عن هذه الحرية). هكذا قال دونالد، وعلى هذا النحو تبدت مواكب الدموع والمناوشات الجماعية الجديدة هي الحرية الوحيدة التي سعي العراقيون إليها بأرجلهم، مثلها مثل النهب الجماعي المخزي الذي قاده الحواسم.

بعد بضعة أسابيع فقط من الاحتلال الأمريكي- البريطاني، تبين بجلاء أن العالم كله، وليس العراق وحده بات نهباً للمشاعر الخلاطنة نفسها، وتلاشى وسط الزحام معنى الكلمة وتبدلت دلالتها البسيطة. لقد تفشي فيروس المشاعر المتاقضة والخيزة للوجودان وعم الوباء.

ويبدو أن الترويج الصاخب للمفهوم المتبس والمغامض للتحرير الأمريكي، هو الذي ساهم بفعالية في انتشار نوع من لغة مرأة تسمح لن يتلقنها، بمواصلة الخلط بين المفاهيم. اختلط مفهوم الحرية بالفوضى، والاحتلال بالتحرير، واختلط المسيح بالمهدي المنتظر، كما اختلطت أعمال النهب الإجرامية بمفاهيم الحرية الشخصية، وتماماً كما اختلط التعريفات القانونية للحق الشخصي (في التعبير عن سنوات الكبت والحرمان) بحق المجتمع نفسه في الحفاظ على الدولة كنظام للعلاقات الداخلية من الانهيار والتمزق الوجданاني والتهتك الأخلاقي والفساد والجريمة. وأنئت اختلط الأساطير بالسياسة حيث ارتفعت في الهواء لافتة علقة خطتها، ويا للسخرية، أصابع تلاميذ ماركس العراقيين العلمانيين، في محاكاة هزلية يصعب وصفها. ولكن، بدلاً من المسيح كان هناك المهدي المنتظر، وبدلًا من القول بصرامة أن ثمة خداعاً وتضليلًا وأن المسيح لن يأتي؛ كان هناك تملق مكشوف للشيعة من خلال ترديد مزاعم يشك فيها حتى مفكرو الشيعة أنفسهم. وكم تبين أن الحرية الموعودة لم تكن سوى الاسم الحركي لوجة عمياء من الفوضى والخراب؛ ومن التغيير المتعمد لخزان الأساطير القيمية في مجتمعات كانت تترقب لرؤية المدينة والتقدم والحضارة؟! المثير للاهتمام أن دونالد ظل يتشدق أيام تالية - في خطبه الكثيرة والمملة - بأن كل شيء في العالم والكون هو نوع من الفوضى.

كان الحديث هليجاً يعطي المعاني، نوعاً جديداً ومثيراً ومسويناً من الفوضى، ينذر رؤية ما يعاثله في التاريخ المعاصر لا من حيث قسوته الصادمة، ولا من حيث درجة وقوه الافراط فيه على مستوى استخدام العنف كأداة في تشكيل وهي المجتمع؛ وإنما أيضاً من حيث درجة وقوه التنافقات الصارخ الذي يتضمنه. لقد كان حدثاً افتتاحياً مهيباً صاحباً وعنيفاً لحصر جديد تغدو فيه الميثولوجيا (الأساطير) جزءاً عضوياً من السياسة. وهذا هو لب تفكير طبقة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية (الذين يتوادون ويتناسلون كالأرانب في المؤسسات اليوم ويفرضون سطوتهم خارج العالم الأمريكي لا يوصفهم تياراً وإنما بوصفهم طبقة جديدة استحوذت على المال والنفوذ والإيديولوجيا).

ولئن أسفر الحدث على مستوى المشاعر والأحساس والانفعالات الجماعية والآراء والتحليلات والأفكار والماوافق، عن تناقضات لا سبيل إلى التوفيق بينها حتى داخل العائلة الواحدة في العراق المرقى، وذلك مع غرق البلد في فوضى عارمة لا سابق لها؛ فإنه اتسم بتصاعد موجة من هستيريا النهب بين الجماعات الفقيرة والمشردة في أطراف المدن. كان النهب المنظم أحياناً والعشوائي في غالبية الأحياء، يمتزج ويا للمفارقة بتصاعد موجة موازية من هستيريا دينية (مذهبية) تختلط بدورها بمشاعر طقوسية يلعب فيها الكبار الجماعي والتواوح على الأبطال دوراً مؤجلاً للمشاعر. وبينما كان جمهور من البكتيريا يتسع ويكبر مثل كرات الثلج في الشوارع والأزقة، جارفاً في طريقه جماعات أخرى من السكان في مناحة جماهيرية كبرى؛ كان هناك جمهور آخر من الحواس يقوم بنبه كل شيء؛ وأحياناً يقتل كل من يصادفه أو من يحاول منعه من النهب (كما في حادثة سرقة البنك المركزي في بغداد والتي سقط فيها صبيحة يوم الاحتلال بغداد عدد كبير من الضحايا، ظلت جثثهم تطفو أيام فوق سطح بركة مياه كانت قد تشكلت أثناء تحطم موسير الماء المدفونة داخل بعض الجدران في قبو البنك نتيجة أعمال الهمم بحثاً عن الأموال الخباء).

في ذلك الصباح الدافئ من نيسان/إبريل استنشق المجتمع بأسره ذلك المزاج المتتصاعد من الدخان في قلب العاصمة التاريخية، حيث اختلط البارود بكلمات الحرية والديمقراطية واللبرالية، وتتصاعد مع السنة اللهب في البناءات الحكومية. وبالتأكيد سمع صوت العراقيين المختنقين المذعورين الذين بحث أصواتهم، وهو يتواسلون لجنود الاحتلال أن يوقفوا أعمال النهب والتدمير. كان جنود الاحتلال وعلى العكس مما وعدوا، ينظمون بأنفسهم أعمال السرقة ونهب الممتلكات العامة؛ كما لو أن ذلك هو واجبهم الأخلاقي الوحيد الذي جاؤوا من أجله. كانوا يقمون بحماية اللصوص وبمازحونهم قائلاً: هي على بابا، هي اسرق، احرق. سبّدوا من الصفر، وكانت السنة صفر هي العنوان الحقيقي لغزو العراق.

وتلك أسطورة أخرى من أساطير السياسة.

قبيل غزو العراق وأفغانستان بقليل قرر المحافظون الجدد (رامسفيلد، دوغلاس فاث، ريتشارد بيرل، بول ولوفوفيتز) استخدام كل مواهيمهم في البرهنة على أن التقويم في الشرق الأوسط الكبير يمكن أن يبدأ من السنة صفر، وأن جرة العسل العراقية إذا ما كسرت واندلق السائل الأصفر اللزج فوق الأرض، فإن الذباب سوف يتجمع بكثافة من حولهاـ كما ارتأت نعومي كلارين في مقالتها الرائعة في «نيويورك تايمز»، ولأن العراق هو جرة العسل بالنسبة للمحافظين الجدد، فقد تبدي رجال الأعمال والشركات الكبرى في صورة ذباب؛ بينما غدا تحطيم الجرة مهمة مقسسة من مهمات الخالق الجديد لفرض العمل. إنها الصورة البيولوجية الجديدة والمشوقة للأخر. على هذا النحو، تكون الأساطير الجديدة قد أنشأت منظومة رموز خاصة؛ فالعراق جرة عسل، والذباب شركات الأعمال، والفووضي هيخلق. هذه الرموز التي يؤسسها السرد الجديد، مماثلة من حيث مدلولاتها المباشرة للرموز التي أنشأها السارد القديم لأناساطير العسل. يلاحظ شتراوس في تحليله لأناساطير العسل أن ثمة شبهاً بين العسل

A photograph showing a person standing amidst a large fire. The scene is filled with intense orange and yellow flames, and charred remains of what appears to be a library or collection of documents. A person in a blue shirt and dark pants stands in the background, looking towards the fire. The foreground is dominated by burning debris and twisted metal.

فاضل الربيعي*

هل يمكن لنا أن ننظر إلى الغزو الأمريكي للعراق من منظور ثقافي؟ ما أهمية البعد الثقافي لما حدث في التاسع من نيسان / أبريل 2003؟ في هذه الدراسة الجديدة يعود الباحث والفكر العراقي فاضل الربيعي إلى تحليل نتائج وتداعيات الغزو الأمريكي للعراق، وهذه المرة من منظور ثقافي من أجل رؤية العلاقة بين السياسة والأساطير.. يلاحظ الريبيعي أن الغزو الأمريكي الذي قام في الأصل على سلسلة من الأساطير، هو نموذج فريد في الاستعمار الجديد حيث تتلازم السياسة مع الأسطورة، ويصبح كل شيء خاضعاً لمنطق شاذ لا سبيل إلى تفكيك مقولاته.. «القدس العربي»

حواسم ورجال دین ودبیات

تستخدم كلمة «حواسم» التي شاع تداولها في مراقب الجديد، في توصيف «طبقة» من الأثرياء يعيشون في الأغصان (أو الرفيع الأثرياء) الذين نهبو كل ثروات الدولة العراقية السابقة التاسعة من إنسان/أبريل. وهذه الكلمة لا تزال متداولة على نطاق واسع في وصف هؤلاء. إنها أبلغ وصف يعطي لنوعية شادة من المواطنين الذين فكوا كل انبساطاتهم ليعيشوا حياة بدخ في دمشق عمان وبيروت واستانبول. بعد أيام قليلة فقط احتلال بغداد في التاسع من نيسان/أبريل 2003، تدفقت جماعات عددة من المنفيين العراقيين ماكرة إلى وطنيها وسط عاصفة من المشاعر المتباينة التي عمّت الوطن العربي والعالم بأسره. انت لحظات الاستيلاء السريع والمفاجئ على عاصمة العراقية، لحظات نموذجية على مستوى تعبير عن مشاعر متناقضية بالنسبة لكثيرين كانوا، حتى وقت قريب من هذا الحدث الهلعي سخماً، يعتقدون ويؤمنون إيماناً راسخاً إلى حد بديه، بأن ثمة مساراً آخر للغزو، أي مساراً آخر يسير على الاختبار العنيف للأساطير الجديدة، قد لا تهي بالضرورة بهزيمة المدافعين وإنها يار صحياتهم؛ بل بتصورهم ومواقفهم للصراع، صوصاً بعد معارك أم قصر البطولية. ثم تعاظم الإيمان خلال أيام من القتال البطولي والمجيد قوات المسلحة العراقية وتزايد أعداد القتلى في غوف الأميركيين على الطرقات السريعة المؤدية إلى بغداد. لم تكن هناك في الواقع دلائل قوية على الغزو سيؤدي بالضرورة إلى انهيار ومحو دوله أو تلاشيهما عن المسرح، ولا إلى انفجار زمان الأساطير القيمية في المجتمع. بيد أن الغزو والعنوان ما اتخذ مساراً دراماً مخيّفاً، وسقطت عاصمة في قبضة الأميركيين بسرعة غير متوقعة. كانت تلك لحظات نادرة مشحونة بالفارقان ساخرة والمحيرة للوجودان بالنسبة لمعظم العراقيين، في الخارج وفي العراق نفسه، ذلك أن سائل الإعلام الأمريكية التي فرضت سيطرة اللقا على الفضاء، واحتكرت بث الأخبار الصور، كما تحكمت في طريقة تلقي العالم للحدث حتى نحو غير مسبوق في أي حرب، تولت بنفسها هي عملية منظمة ومنسقة كمالاً أنها فرقة سكرية شديدة الانضباط جرى الحال رجلاتها في حرب، تشكيل مشاعر الملايين من البشر للتلاعب بهم، وتصوير الغزو وكأنه «نوع من مسلسل» سوف ينسكب من الجرة، وليس نوعاً ديداً من فائض الدم الذي يراد له أن ينسكب من ساد العراقيين. أكثر من هذا جرى تصوير الحرب حتى أنها حرب مقدسة وضرورية، ولأجل أهداف دستة وضرورية كالديمقراطية والحداثة والتقدم الحديثة وليس من أجل إعادة العراق إلى عصر ساطير، مثلما توعد جيمس بيكر.

هذه الأهداف أي الديمقراطية والتقدم والمدنية الحديثة، كما سیلاحظ المراقبون للحدث، سرعان تحولت شيئاً فشيئاً ومن دون تمويه، إلى سلسلة لا تكاد تتقطع من الأساطير الجديدة

